الحكم العثماني بطرابلس الغرب

الحكم العثماني الأول بطرابلس الغرب(1551–1711م)

أ- عهد البكلربكي 1551–1606م: أو البيلربايات أي أمير الأمراء، وهي مرحلة ميزت إيالات شمال إفريقيا عامة بالهدوء والاستقرار النسبي، وحققت فيها بعض السمات الإدارية والعسكرية بفضل بعض الولاة، وهم قلة الذين أخلصوا للمركز الدولة وللسلطان العثماني، وكان أغلبهم من رجال البحر الذين ساهموا في بسط النفوذ العثماني في البحر المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي. بدأ عهد البكلربك في طرابلس الغرب بعد تحريرها من فرسان القديس يوحنا واعتراف الليبيين بولائهم للسلطان العثماني، وأبرز الولاة الأوائل الذين أداروا الحكم العثماني بليبيا هم: **ولاية مراد أغا(1551–1555)،** كان أول الولاة خلال هذه المرحلة، كان قائد الحملة العثمانية الأولى التي أرسلها السلطان العثماني سليمان القانوني لتحرير طرابلس الغرب. عمل بعد توليه الإمارة نقل مركز إدارته من تاجوراء إلى مدينة طرابلس الغرب واتخذ قلعتها مقرا دائما له، كما حول الكنيسة فيها إلى مسجد، وقام بتنظيم الإدارة والجيش وحصن المدينة وبنى الاستحكامات العسكرية حولها، **ولاية درغوث باشا(1555–1565م)،** عمل هذا الوالي على فرض نفوذ الدولة العثمانية على الشواطئ الليبية كلها، لكن نفوذ العثماني في الحقيقة لم يتعدى السواحل، لكن نجد أن درغوث باشا كان لديه اهتمام بدواخل البلاد ومحاولة بسط النفوذ العثماني بالداخل أيضا. أصبحت ليبيا في عهده تشكل إحدى قواعد الجهاد البحري في شمال إفريقيا. عمل درغوث باشا منذ بداية حكمه على إخضاع القبائل الداخلية وضرب بشدة مثيري الفوضى والشغب، ولاحق القبائل البدوية الثائرة، وحذرها من مهاجمة بعضها البعض، وأمن الطرق وقضى على اللصوص وقطاع الطرق السائحين في مختلف مدن الولاية

ب- عهد الدايات 1606–1711م: وضع الإنكشارية من خلال الديوان نظاما وقواعد ضابطة على الفائزين بثقة الديوان، كما حدد مهمة الوالي المعين من اسطنبول، ونص النظم التي وضعوها على انتخاب رئيس الديوان الجند لمدة سنة أو شهر وأن يلقب الشخص الفائز بثقة الديوان باسم الداي. فاز الضابط سليمان بثقة الديوان، ويعد أول ضابط انكشاري يترأس الديوان الجند في عهد الدايات وبعد انتهاء مدة حكمه حاول الاستمرار بالسلطة إلا أنه أرغم على التنازل عن منصبه.

قسم المؤرخون فترة حكم الدايات إلى فترة القوة، وفترة الضعف، وقد تحكمت في ذلك العديد من العوامل، أن في المرحلة الأولى أن الديوان استمر بالسير على نهجه حتى سنة 1611 فترة مميزة سادها نظام وتساوى الجميع أمام القانون، وضربت العناصر الفوضوية بدون أي رحمة ومنحت البحرية حرية التصرف وقدمت لها

تسهيلات كثيرة ساعدتها على تحقيق نجاحها وتفوقها البحري، وأغرقت الأسواق بالبضائع المحلية والمستوردة، خلال هذه المرحلة تعاقب على حكم طرابلس الغرب العديد من الدايات الذين فازوا بثقة الديوان لكن كان أغلبهم غير مستقرين في سياستهم وأسلوبهم في الحكم، خاصة فيما يتعلق بعلاقتهم مع سكان البلاد، وموقفهم المتذبذب من الإنكشارية مثل مصطفى باشا الذي تولى دايا على ليبيا من قبل السلطان العثماني الذي أعاد الاستقرار للإيالة غير أنه استبد بسكانها وعندما اشتكى السكان بظلمه وجبروته أمر بإعدامه عام 1630.

ثورات الليبيين ضد الحكم العثماني: قامت العديد من الثورات ضد الحكم العثماني بطرابلس الغرب خاصة في المناطق البعيدة التي تنتشر بها القبائل الليبية ذات النفوذ والقوة، ذلك نتيجة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وظلم الولاة وتجاوزات جباة الضرائب، وبطش الإنكشارية في النهب والاعتداء على السكان، إلى جانب معاملة الولاة السيئة، وفرض الضرائب التي أثقلت كاهل السكان وأجبرتهم على القيام بالثورات لتغيير تلك الأوضاع . فقامت العديد من الثورات أهمها:

ثورة سكان غريان حيث أعلن سكان غريان العصيان على الريس درغوث، وهاجوا الحماية العسكرية التركية وذبحوا فيها قسما كبيرا، فحاول الريس درغوث حل المشكلة سلميا، وحينما فشل جهز جيشا من الإنكشارية قادهم بنفسه وضرب أهلها بشدة وقسوة، وأخمد الثورة وفرض عليهم غرامة مالية كبيرة. والثورة الأخرى هي ثورة أهل فزان: أعلنوا الثورة ضد الأتراك وقتلوهم فلم تفلت منهم سوى طائفة أولاد علون، ولقد حاول الوالي صفر داي القضاء على هذه الثورة وزعماءها واستمر بإنزال مظالمه بأهل تاجوراء الأمر الذي جعلهم يشتكون إلى السلطان العثماني ابن السلطان أحمد خان الذي قام بإعدام الوالي. ثورة يحي بن يحي السويدي: كانت بدايتها من تاجوراء التي كانت قاعدة للثورات، سرعان ما التف حولها الأهالي من مختلف المناطق، وكادت هذه الثورات أن تقوض الحكم العثماني وتقضي عليه لولا خيانة شيخ قبيلة بني نوير لقائدها يحي السويدي باتفاقه مع الوالي العثماني على ذلك، وتمكنت من القضاء على الثورة.

ثورة ضد الوالي العثماني رمضان باشا: بعد أن قام رمضان باشا بإلقاء القبض على بعض زعماء الثورات، مما أدى إلى تفاقم الثورة وأعلنت مختلف المدن الليبية الثورة عليه، وبمهاجمة الحامية التركية، وعرقلوا الاتصال بين مدينة طرابلس والدواخل، فقرر رمضان باشا تأديبهم فخرج من طرابلس في آذار من سنة 1584م فتوغل في الولاية حتى أخضع الغريان ومنها اتجه إلى بني الوليد وحينما لم يلقى مقاومة قوية توغل في الداخل حتى بلغ ككلة وإلحاق الهزائم به وبقواته، فعمد الأهالي إلى ردم الآبار الداخلية، ونتج من تعرض قواته للجوع والعطش ومات الكثير منهم، وحينما صمم على ملاحقة العصاة ثار عليه قواده وجنوده وقتلوه قبل عودته إلى طرابلس. ثورة سكان الجبل سنة 1608: قادها الداعية عبد الله، رفض السكان من خلالها دفع الضرائب. فكلف الديوان

ابن نويرة زعيم قبيلة المحاميد إخضاعهم، فلبى هذا الأخير طلب الديوان. فهاجم سكان الجبل في طرابلس ولاحقهم حتى حدود الجبل، وألزمهم بالطاعة ودفع ما عليهم من ضرائب.

خصائص الحكم العثماني في طرابلس الغرب: كان الحكم العثماني محدودا في المنطقة الساحلية وضواحيها خلال الفترة الأولى من الحكم العثماني(1551–1711م)، أما القبائل والدواخل فلم يرحبوا بحرارة نفسها التي رحب بها سكان مدينة طرابلس بالعثمانيين، على الرغم من محاولاتهم الجادة لفرض نفوذهم على المناطق الداخلية، لذلك فإنهم تركوا إدارة الأقاليم الداخلية إلى الأمراء والزعماء المحليين، كما أن العثمانيين لم يتدخلوا في تفاصيل الحياة العامة للسكان خلال هذه الفترة وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية بين الأهالي ومناطق مختلفة من البلاد. رغبة الحكومة العثمانية في بقاء ليبيا ولاية عثمانية أدى إلى عدم ابقاء الوالي في مركزه لفترة طويلة مخافة أن يستقل بالبلاد مما أدى إلى أن أغلب الولاة الذين توالوا على حكم البلاد لم تكن لهم سياسة ومحددة في استغلال الأراضي ولم تكن لهم سياسة معينة في نشر التعليم والعناية بالصحة، اتسعت رقعة البلاد وقلة عدد السكان وانعدام المواصلات وبطء الحركة، وكانت سيطرة الوالي تقتصر على المدن الساحلية فقط كما أشرنا سابقا بينما البلاد الداخلية لا تخضع لهذه السيطرة وكثيرا ما أعلنت الثورة عليها ولهذا ظهرت ثورات كثيرة من الليبيين ضد الأتراك وصعب على الولاة إخضاعها.

II– حكم الأسرة القرمانلية 1711–1835م: ينتمي أحمد القرمانلي إلى أسرة تركية هاجرت من قرمان بآسيا الصغرى إلى طرابلس الغرب، تقلد مناصب عسكرية، وكان قائد المنشية أيام خليل باشا. وأثناء الاضطرابات بين الوالي والقراصنة هرب الوالي خليل باشا ولما أحس خليفته محمد أبو أميس بما يتمتع به أحمد القرمانلي من شعبية ونفوذ، عزم أن يقتله فعلم أحمد القرمانلي من بعض المخلصين ودعوه إلى ولاية طرابلس، بإجماع أهلها(أعيان الديوان وأعيان البلاد). استطاع أن يتغلب على القوة البحرية التي أرسلتها الدولة العثمانية وكان هدفها إعادة واليها خليل باشا لكنه قتل على يد قوات أحمد القرمانلي. أعلن أحمد القرمانلي ولاءه للعثمانيين فمنحه السلطان العثماني أحمد خان الثالث لقب الباشوية وأقره هناك. استطاع أحمد باشا القرمانلي أن يحصل على فرمان من الآستانة بأن تكون الولاية وراثية لبنيه من بعده.

تمكن أحمد باشا القرمانلي من توطيد حكمه في طرابلس الغرب، دفع إعلان الولاء للعثمانيين، ترضية السلطان العثماني بالهدايا. قضى على الاضطرابات الداخلية والعابثين بالأمن، ضرب على أيدي قطاع الطرق التجارة في الصحراء. التخلص من استبداد الإنكشارية، بحيث استطاع أن يتخلص من ثلاثمائة ضابط غيلة في أثناء حفل أعده لهم في إحدى ضواحي طرابلس الغرب. وحد ليبيا بولاياتها الثلاث: طرابلس، برقة فزان. عين أخاه شعبان بك عاملا على برقة وبنغازي، أجبر الدول الأوروبية على دفع الجزية لضمان سلامة رعاياها

ومصالحها. استقرت الأوضاع خلال فترة حكمه ومع المناخ الملائم الذي ساعد على وفرة الإنتاج الزراعي وانتشار الرخاء، استطاع أن يصل بالبلاد إلى الاستقرار الداخلي والخارجي. ومن مآثره أسس جامع قرب باب المنشية، وألحق بها مدرسة، وجعل الأوقاف عليها، وأوقافا أخرى على إجراء المياه العذبة إلى مدينة طرابلس وعلى سور المدينة، وتشييد المنشآت المدنية. بنى برجا غربيا في ميناء طرابلس، وقام بتقوية البحرية الليبية التي تعتمد عليها في هيبتها أمام الدول الأوروبية.

توفي أحمد باشا القرمانلي عام 1745م وخلفه ابنه محمد باشا سار على نهج أبيه من حيث الاهتمام بالأسطول وتجديد سفنه ومعداته، فكانت ليبيا في عهده مهابة الجانب. عقد معاهدة مع انجلترا لضمان سفنها ولم يأخذ موافقة العثمانيين فغضب السلطان العثماني منه، ولكن محمد باشا استطاع إرضائهم وذلك عام 1750م. توفي محمد القرمانلي عام 1754م وخلفه ابنه علي وكان صغيرا عرفت البلاد في عهده عدة مشاكل، سوء العلاقات مع بعض الدول الأوروبية كالبندقية حيث كانت هناك معاهدة حماية للأسطول، لكن البحارة الليبيين هاجموا سفنهم فثارت ثائرة الدول الأوروبية. اضطراب الموانئ، أصيبت البلاد بقحط عام وقلة الأمطار وانتشر المرض وضعف الإنتاج الزراعي. تدخل ولاة الجزائر وتونس في شؤون ليبيا. استيلاء والي الجزائر علي باشا برغل الجزيري على طرابلس عام 1792م، لكن استطاع أحمد بك القرمانلي أن يسترجع طرابلس عام 1794م بمعونة تونس، وتولى لأمرها أحمد بك بن علي باشا ولكن يوسف باشا خرج على أخيه بعد سنة وشهرين وانتزع الولاية منه.

ينظر بعض المؤرخين إلى الأسرة القرمانلية باعتبارها ذات ايديولوجية تقدمية، انحازت إلى قضايا الأهالي واندمجت فيهم فكانت على حد تعبير البعض «ذات طابع وطني، إذ أبعدت الأتراك، وأحلت اللغة العربية محل التركية، وأسندت المناصب إلى أبناء البلاد». لكن هذا لم يمنع بأن أفراد هذه الأسرة قد استغلوا السكان.

حكم يوسف باشا القرمانلي 1795-1832م ونهاية الأسرة القرمانلية: شهدت بداية حكم يوسف باشا القرمانلي قمة نفوذ هذه الأسرة السياسي، ولكن في السنين الأخيرة كانت بداية أزمة حكم أدت إلى سقوط هذه الأسرة. صعد يوسف باشا إلى الحكم بطريقة دموية، فلقد كان الابن الأصغر لعلي يوسف باشا القرمانلي، لكنه كان مصمما على تولي الحكم. ولذلك اغتال أخاه الأكبر حسن وطرد أخاه الأوسط أحمد وأصبح واليا في عام 1795م. بدأ حكمه بزيادة قيمة الأتاوات والخراج على السفن التجارية للدول الأوروبية الصغيرة. لكن حربه مع الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1805م، وتحالف فرنسا وبريطانيا ضده أديا إلى إلغاء بعض الأتاوات مما قلل دخل ميزانية الدولة. وضع حد لحكم أولاد محمد بفزان في عام 1812م. جهز حملة أولى مكونة من 6000 رجل بقيادة عبد الجليل سيف النصر شيخ قبائل أولاد سليمان إلى كانم لمساعدة حليف القرمانليين الشيخ محمد

الأمين الكانمي حاكم كانم الذي واجه تحديا لحكمه في عام 1817م. هذه الحملة رجعت بغنائم كثيرة 6000 جمل محملة بالبضائع والعبيد. الحملة الثانية وبالتحديد في عام 1826م بقيادة مصطفى الاحمر والي فزان إلى كانم وعاد أيضا بغنائم كبيرة إلى طرابلس.

استمر يوسف باشا في سياسة البذخ دون مراعاة للأوضاع الاقتصادية من غير أن يوسع القاعدة الاجتماعية لحكمه وبدأ في سياسة الاستدانة من التجار الأوروبيين، هذه السياسة خلقت أزمة مالية للدولة فدين يوسف باشا وصل إلى نصف مليون دولار في عام 1830. حاول يوسف باشا في مغامرة يائسة زيادة موارده، فزاد قيمة الضرائب على الزراعة والمنتوجات الحيوانية، لكن لم تكف لدفع ديونه، فضلا عن أن قافلة الحجاج الكبرى التي كانت تضم آلافا من الرجال والجمال في طريقها إلى مكة، وتمر بطرابلس منذ عهود طويلة، غيرت طريقها في أواخر حكمه وآثر الحجاج السفر بطريق البحر، ما عدا بعض مئات الأشخاص الذين استمروا في اتباع الطريق التقليدي. لذلك فرض ضرائب جديدة ليس فقط على الحرفيين وفقراء المدن بل حتى على الطبقة الحاكمة الكولوغلية ضد حكمه. إلى جانب المشاكل الخارجية توتر العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب أن يوسف باشا طلب المال لضمان سلامة سفنها ولم تجب أمريكا طلبه فقام الليبيون بأسر بحارتها، فأرادت أميركا الانتقام، فأغرت أحمد بك بالحكم. استولى الأمريكان على درنة وبرقة عام 1804 فخشي يوسف باشا العاقبة فطلب الصلح وتوسط والي الجزائر وقنصل انجلترا في ليبيا فعقد الصلح بين أمريكا وطرابلس الغرب. ويعتبر هذا بداية للتغلغل الأوروبي في المنطقة وصراع الدول الأوروبية حول الامتيازات فيها خاصة بين انجلترا وفرنسا بعد حملة نابليون على مصر 1798م. وتمثل الصراع بين الدولتين من خلال السفراء، حيث استطاعت فرنسا توقيع معاهدة مع يوسف باشا عام 1830م تقضي بمنحها حقوق الدولة الأفضل رعاية.

بلغ اليأس مداه فأضطر يوسف باشا إلى التنازل عن الحكم إلى ابنه علي، لكن الكولوغلية نادوا باسم حفيده محمد بن أحمد القرمانلي، وانضم إلى المتمردين القنصل الانجليزي وارنغتون لأن القنصل الفرنسي أيد تعيين علي القرمانلي.